رُوح اللطف

رصيد إنسانى للأسرة والمجتمع

الشعب المصرى شعب وديع ودود بطبيعته ، وليس شيء من هذا بمستغرب إذا نظرنا إلى نشأة هذا الشعب و بيئته ، فهو شعب زراعى عريق ، انقضت عليه القرون تلو القرون وهو مطمئن إلى بيئته خاضع لحكومة مركزية ودولة ثابتة ، متمتع بحضارة معروفة رتيبة .

والأسرة هى محور حياة هـذا الشعب الذى يقوم عليه كيانه ، ولها فى تفكيره ونفسه المكان الأول منذ أقدم الأجيال . والوصايا المتناثرة فى آدابه القديمة عن الأسرة غير قليلة والمشاهد الحاضر يجزم بأن هذه الروح القديمة سارية فى دماء الشعب وتقاليده .

فمن الوصايا القديمة قول " فتاح حوتب " لأحد التلاميذ : " إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا واحبب قرينتك الحب الجميل ، واطعمها واكسها وطيب أوصالها وادخل السرور على قلبها طول حياتها ".

وروى الأستاذ العقاد فى كتابه " سعد زغلول " بعض الملاحظات الصادقة التى تدل على تغلل روح الأسرة فى كيان الشعب إذ قال :

"إن المصرى لينسى كل شيء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة ، وقد يسف المجرم إسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة ، لكنه لا يزال فى صميم نفسه ذلك الخلف المتحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعا فى ظل الأسرة ، ودانت جميعا بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها .

"راقبت هذا الخلق فى نفوس العلية والسفلة ، وفى نفوس الشرفاء والمجرمين ، فوجدته على قرار مكين فى جميع هؤلاء .

" وأردت وأنا فى السجن ، أن لا يفوتنى سبر هذا الخلق فى طبائع اللصوص والفتاك ، والمحتالين والأنذال ومدمنى الخمر و لسموم فاذا هم كلهم " بيتيون " فى طوية النفس يتمردون على القانون والفضائل والعظات ، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين الأعمار والأسنان على حكم الأبوة والبنوة والإخاء والقرابة فى الأدهار بعد الأدهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود .

" رأيت مرة طفلا صغيرا من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث فى الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقران فى سنه ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله ، "جوعان" .

"فتمهل اللص العائد وقال له : " وماذا أصنع لك يا بنى ؟" وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبق لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد .

" ورأيت رجلا شيخا نازلا من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ولا يجد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم إليه لحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله ، دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله "

* * *

ومع هذه الأدلة التى لا تخطئ فى القديم والحديث على الحنو العائلى الطبيعى فى نفس المصرى وعلى تأصل الشعور بالأسرة ومودتها فى نفسه ، فإن عوامل طارئة حجبت الكثير من هذا الشعور وأشاعت فى النفس المصرية كثيرا من الجفوة والعزلة .

ذلك أن طول العهد بالظلم والاستبداد ملأ نفس المصرى بالمرارة والحقد وغطى على روح المودة والبشاشة والسماحة التى هى عنصره الأصيل ، كما أن تقاليد الأسرة التركية وما فيها من جفاف وغلظة واعتزال بين الرجال والحريم وبين الآباء والأبناء أثرت فى التقاليد المصرية السمحة الوديعة وحرمت البيوت لذة الأنس المشترك والتقارب العائلى فى الدار .

وكانت ثمرة هذه العوامل جميعا ما نراه من الجفوة وضيق الصدر والعزلة النفسية فى البيوت والمجتمعات ، حتى يصح القول بأن الأسرة والمجتمع غير موجودين بمعناهما الصحيح فى مصر .

ومع أن الأوروبيين بطبيعتهم أقل وداعة ومودة ، وأقصر حضارة وعراقة من المصريين والتنازع بينهم على الحياة أشد ، والتنافس أقوى ، مما يجعلهم أقل ميلا للتسامح واستعدادا للتواد ، إلا أنهم مع هذا قد سبقونا ، بما لا يقاس ، بتوافر روح التعاطف والتواد فيما بينهم وتغلغل روح الخدمة الاجتماعية فى نفوسهم .

وأدلة التعاطف والتود واضحة فى البيت الأوربى بين الزوج وزوجه ، وبين الآباء والأبناء وبين الكبار والصغار والإخوة والأخوات ، تعرف ذلك فى نظراتهم وحركاتهم واجتهاد كل منهم فى إدخال السرور الى قلوب الآخرين وفى ملاطفتهم ومؤاساتهم وإشعارهم بالود الخالص والمحبة الصافية ، مما يعكس على البيت ظلالا لينة رفيقة ، وينفخ فيه من روح الفردوس الناعمة الظليلة .

وأما فى المجتمع فأنت تلمح هذه الدلائل فى آدابهم الاجتماعية الرقيقة ، فى الشكر والاعتذار وفى تحفظ كل فرد وتحرزه من أن يمس شعور الآخرين أو يجبههم بتصرف خشن أو لفظ مستكره ، أو إشارة مؤذية .

وليس هذا إلا أبسط مظاهر التواد والتراحم فيما بينهم . فانتشار الخدمة الاجتماعية بجميع ضروبها ، ونهوض الأفراد والجماعات بها فى غير كلفة ولا إعلان ، أوضح ما يدل على قوة روح العطف الانسانى الجميل .

فكيف حدث أن تنفسح النفس الأوربية لهذا الخير كله وأن تضيق النفس المصرية عنه ، مع أن العكس كان أولى وأحرى بطبيعة نشأة هذه النفس وتلك وظروفهما الاقتصادية كذلك ؟

حدث ذلك كما قلت بسبب الاستبداد الظالم الذى جعل المصرى ينكمش عن المجتمع ويهمل الاشتغال بالشؤون العامة التى تخلق الروح الاجتماعية وتنميها . وبسبب الفقر الذى يملأ النفس ضيقا وظلاما ويكفها عن النشاط والمرح ، ويضنيها بالكدح الدائم فى سبيل اللقمة الجافة ، ويجعلها أقل احتمالا وتسامحا ولينا .

وحدث كذلك بسبب تقاليد البيت التركى التى غزت البيت المصرى العريق فجعلت هوة بين "السلاملك" و "الحرملك" وبين الكبار والصغار ، مما لم تعرفه الطبيعة المصرية فى القديم ، ولا يعرفه الريف إلى اليوم إلا فى بعض بيوت الأثرياء الآخذة بتقاليد الأتراك والمتراكين .

*
* *

ونحن فى حاجة إلى الكشف عن الطبيعة المصرية الأصيلة ، واستنقاذها مما تراكم عليها من ركام التقاليد الدخيلة ومن أوضار الفقر والظلم فى العهود السحيقة . فالتعاطف رصيد انسانى تنفق منه الأسرة فى أزماتها النفسية والعائلية ، ورباط يشد بعضها إلى بعض ويقوى دعائمها ويقيها التصدع والانحلال .

وهو كذلك رصيد انسانى للمجتمع ، ينبع منه التواد والتراحم ، وتقام على أساسه المنشآت الخيرية ، وتستمد منه الخدمة الاجتماعية ، وتتغذى به الفضائل الانسانية على العموم .

فكيف نكشف عن هذه الطبيعة ونغذيها حتى تقوى و يشتد ساعدها .

كل محاولة لإشعار الشعب أن عهد "حكومة الحاكمين" قد زال ، وأن حكومة الشعب حقيقة واقعة لا أوضاع قانونية ، يكون لها أثر طيب فى إنعاش الروح الاجتماعية وصقلها وتنشيطها للعمل والاهتمام بالشؤون العامة ، والعناية بهموم الآخرين .

وكل محاولة لتخفيف الأعباء المرهقة عن كاهل المحرومين الأشقياء ورد بعض حقوقهم إليهم . هذه الحقوق المترتبة على الكدح والمشقة ، بحيث تتعادل الحقوق والواجبات ويتفق الجهد والجزاء ، كل محاولة فى هذا السبيل خليقة بإزالة المرارة والجفوة البادية فى أقوال الناس وتصرفاتهم ، وعودة بهم إلى الاستئناس والتسامح اللذين اشتهر بهما المصريون .

وعلى كل متنور فى هذا البلد ضريبة معلومة ، وهى أن يساهم فى تقوية هذه الروح فى منزله وبيئته بالبشاشة والتجمل على قدر ما يطيق ، وبإشاعة روح المرح والسرور على الرغم مما قد يكمن فى نفسه من عوامل الكآبة والفتور .

والصداقة العائلية رصيد لا ينشأ دفعة واحدة ، ولكنه يتألف من الابتسامة الرقيقة والإشارة العطوف ، ومن التسامح اليومى والعطف الوقتى ، ثم يتضخم وينمو حتى تحس به الأسرة وتطمئن إليه وتثق بقدرته على مواجهة الطوارئ والأزمات التى لابد منها فى حياة البيوت .

وكذلك ينشأ رصيد الصداقة الاجتماعية التى تدعو إلى مختلف ضروب الخدمة العامة بلا انتظار لأجر أو ترقب لثناء .

وينبغى ألا نيئس مما نراه من مظاهر الفتور فى الخدمة الاجتماعية ، فكل خدمة صغيرة ستشترك فى تكوين ذلك الرصيد الضخم الذى ننتظره بعد زوال عهود الظلم والاستبداد وبعد أن أصبحت الأمة صاحبة الرأى فى شؤونها ، وبعد إنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية وهى رمز حى لهذا الرصيد الذى لابد من نشوئه وتضخمه فى يوم من الأيام .

رحم الله رجلا سمحا ، إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

حديث شريف